الشاعر محمود ابو الوفا

لمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده

بقلم الأديب محمد أفندى السيد

الأستاذ الفاضل الشيخ محمود أبو الوفا ، شاعر مطبوع بالسليقة ، وكاتب فذ بالصناعة ، عظيم بنفسه ، جليل بفنه ، صاف بروحه ، غنى باخلاصه ، لايعرف المداجاة ولا تعرفه ، ولا يجد الرياء ـ بالغا مابلغ ـ إليه سبيلا ، عرفته منذ أربعة عشر سنة ، فكان ومايزال لى نعم الصديق الصادق ، والأخ المخلص الناصح ، وعرفت له مواقف مشرقة ، أكثر الناس بها لايعلمون . تلك مواقف كانت نتيجة لفرص عرضت له فأبت نفسه العالية أن يهتبلها ، بل أبت عليه عظمته أن يداجى أو يمارى فيها . فاذا كان الكاتب لهذا المقال ، قد عرض لبعض نواحيه ، مقررا فيها الحقيقة ، فأنا بكلمتى هذه ، أزيد كلمته يقينا على يقين . ولا يسعنا الا أن نخص بالشكر الأستاذ الفاضل الدكتور أبا شادى صاحب فكرة الاحتفال بميلاد الشاعر النابغة (أبى الوفاء) راجين أن يظهر عظماؤنا وعلماؤنا ورجالاتنا وأدباؤنا فى بلاد الشرق تشجيعهم لهذه الفكرة السامية ، فيقبلوا على تلك الحفلة التى ستقام قريبا .

ويسر (المعرفة) أن تساهم بنصيبها الضئيل ، فتضع تحت تصرف لجنة تكريم الشاعر خمسين وصلا من وصولات الاشتراك بها ـ ليتسابق محبو الشاعر فى دفع قيمتها للجنة ، ومطالبتنا بأرسال المجلة إلى حضراتهم ؟

المحرر

أعتقد أن الانسان مهما حاول أن يعرف الحرية أو أن يصف الثورة لايستطيع ، وغاية مايبلغه هو أن يظهرك على الآثار . . . أما البواعث والمؤثرات فلا سبيل إليها .

وعلى التحديد فهو يتحدث عن النتائج ، أما المقدمات فهى محجوبة عنه . . وأستطيع أن أزعم أن كل ما تحدثنا به الكتب وما يقوله التاريخ فيما يجرى فى هذا الشأن ، إنما هو سرد وتعديد للآثار والنتائج ـ أى الحوادث ـ ليس غير .

أما الذى يزعم أنه حدد الحدود ، وبين المقدمات ، ورتب عليها النتائج ، فعندى أنه واهم يبنى القصور على الرياح .

كذلك وحى الضمير ، وإلهام الروح ، وصفاء النفس ، وإحساس الأنسانية ، واختلاجات

العاطفة ، ودوافع الوجدان ، ونزوات الهوى ، كل هذه أمور لم يحدها الوصف ، ولم تعرف فى حقائقها المجردة ، وأعتقد أن المستقبل لا يستطيع أن يكشف عنها إطلاقا ، بل والويل للانسانية اذا كشف المستقبل القريب أو البعيد عن هذه النواحى . . . . .

والروح لم تعرف أيضا ، ولأنها سر من أسرار القدسية فلن تعرف أبدا .

وكذلك أزعم أنا ، أن الناحية الشاعرية من الانسانية مجهولة ، وستظل مجهولة مادام أنها مزيج قوامه انطلاق الروح أو مانسميه الحرية أو الثورة ، مضاف الى ذلك صفاء الذهن ، ونقاء التفكير ، وما ينتج عن هذا جميعه من الوحى والالهام .

وأنا اذاً غير مبالغ إذا قلت لك : إنى لا أعرف صديقى الشاعر (محمود أبا الوفا) فى حقيقته ، وعلى التحديد فى حقيقة شاعريته .

فمن الشاعر ؟ وما الشعر ؟

ذلك أمر فيما أرى يدق عن الفهم ، ولذا فهو يجل عن الوصف . . . . . فالشعر ليس كلاما مقفى . . . ولا هو أوزان وتفاعيل . . انما الشعر وحى الوجدان وفيض العاطفة . ثم اذا صفا الشعر وراق فهو سيل يغمر الدنيا بأسرار ملؤها ذوق الحياة والاحساس بها ، والشعور بالانسانية الحقة .

واذا أبيت الا أن يكون الشعر كلاما فهو كلام النفس ، ولغة الروح .

وأنت اذا أحببت أن تعرف أن هذا الكلام شعر ، فسبيلك أن ترى نفس الشاعر فيه شائعة وروحه فيه جارية مجرى الدم فى الشرايين .

وأنا لا أكذب اذا قلت لك : إن صديقى (محمود أبو الوفا) الشاعر مجهول لى ، ثم هو مجهول لأعز أصدقائه ، بل هو مجهول لنفسه أيضا ، ذلك أنه ليس من هذه الدنيا ، فكيف يعرف فيها إذن على التحديد ؟

ومحمود أبو الوفاء شاعر مافى ذلك ريب . . . ثم هو شاعر ثائر . . . أو هو ثورة دائمة الهيجان والغليان ، إلا أنها للأسف محبوسة فى جوف انسان .

ولقد جرى المتقدمون والمتأخرون من الشعراء والمتشاعرين على نمط واحد فى نظم القصيد وقول الشعر . . . فللمناسبات ينظم القصيد فى المديح أو الهجاء أو الرثاء . . أوما الى هذا مما تزخر به دواوين الشعر وكتب الأدب . . . وقد لا يخجل شاعر فى القرن العشرين أن يركب الى ممدوحه الناقة ويقطع الفيافى والقفار . . . ولا أن يتغزل فى امرأة . . وهو بسبيل لا شأن للغزل ولا للمرأة فيه . . .

وأنت اذا أحببت أن تلفتهم الى هذا فالويل لك . . اذ كيف لا يسير المتأخرون فى طريق من

سبقهم ... ولم لا يقلدونهم ويجارونهم فى أغراضهم المعروفة مما هو ملء السهل والميل وزحمة الطريق ؟ . ولكن (محمود أبو الوفا) شاعر من طراز آخر تجيشه الجائشة أو تدفعه العاطفة أو تهزه الحادثة فيقول الأبيات القليلة من الشعر الا أنها - أو غاليتها العظمى - تروح أمثالا ومواعظ .. كيف لا ؟ وهى انما جاءت وحيا غير متكلف أو مصطنع ...

ليس الشعر عند صديقى صناعة - وهو ما أحوجه لأن يكون الشعر له صناعة - ولا أدل على نبل هـــذا الفتى وسمو نفسه من أنه لا يملك من الدنيا غير شعره ونفسه ، ثم يأبى أن يزاحم غيره من الشعراء فيما تراكضوا فيه منذ القدم حتى الآن - من الارتزاق بالشعر وحسبانه سلعة تباع وتشترى .

ولقد كان فى مصر رجل تعلقت به مصائر البلاد ودانت له الدنيا ، وانقادت له الآمال ؛ عاش هـذا الرجل ثم مات ، وقد انهـدت لموته أركان مصر وخفق قلبها واضطرب ، وأصبح مستقبل البلاد بموته فى كفتى ميزان .

هذا الذى حدثتك عنه لم يقل فيه أبو الوفا شعرا وقد عاب عليه بعض الناس هـذا ؛ وعندى أنه من سر عظمة هذا الخامل ومن أسباب خلوده ومجده .

ذلك أنه لا يقول الشعر مجاراة ولا محاباة فهو لم يتملق العظمة . ثم هو لم يتملق الشعب الذى قدس ذلك الراحل الكريم ، ودان له بالطاعة وأسلس له القياد . وصديقى أبو الوفا مخمور بشعره معتز به الى النهاية ، ويكاد يقدسه ، وأنا فى هذا أجاريه ؛ فشعره شىء من روحه وعاطفته . .

وأليست روح الانسان وعاطفته هما من الدنيا كل شىء ؟

ثم هو لا يحفظ شعره ، بل ولا يحتفظ به ، ولم أر له ديوانا يقرأه الناس كغيره من الشعراء المتشاعرين وما أكثرهم فى هذا الزمن ... ولكن لهـذا الفتى أصدقاء ومعجبين قد كفوه هذه الناحية من الضعف فحفظوا شعره ورووه . . ثم ما حاجة أبى الوفاء لأن يحفظ الناس شـــعره ويتناقلوه الا أن يكونوا هم فى حاجة الى هذا . ؟

وحظ الشعر وحظ الأدب وحظ الفنون الجميلة فى هذا البلد هو على ما ترى تجارة بائرة ، ولست أرمى مزاج مصر بالعقم ولا روحها بالافلاس ، فمازال فيها ناس يتذوقون الأدب ويطربون للشعر غير انهم للأسف أقلية بل أقلية ضئيلة .

فلو أن للأدب مكانته هنا لكان لمثل هذا الشاعر من يحفظ قدره ويعرف قيمته ، فيهيء له من أسباب الدنيا ما ينمى فيه عاطفته النبيلة ووجدانه الشريف ، فيستفيد منه المجتمع أضعافا كثيرة .. ثم الى جانب هـذا يستطيع أن يحتفظ للأمة بتراثها ومجدها مخلدا على الزمان .... ومن أحق ببنات الفكر وآيات الشعر تخليداً ؟

وأبو الوفا متواضع جم التواضع ، بل التواضع فيه سجية وطبيعة ، فهو لا يتحدث عن نفسه ولا يعلن عن محصوله ... وأنت أدرى بما للاعلان من قيمة وفائدة فى زمن طغى فيه الاعلان على كل شىء ...

وبعد ، فما أحراني بعد هذه التقدمة أن أصور لك أبا الوفا تصويرا ، فأظهرك على كل شىء فيه وكله مما تحب أن ترى وأن تسمع ... ولكن سبيل هذا التصوير فيما أرى أن أضع أمامك جمهرة من شعره على المائدة للتشريح والتقطيع ، مما لا يتسع له صدر الصحف والمجلات ، ودراسة من هذا القبيل سبيلها الكتاب ، والكتاب وحده .. غير أنى مع هذا أريد أن لا أحرمك بعض ما تذوقت من شعره فأعرض عليك عرضاً شيئا منه ..... قال أبو الوفا من قصيدة (حيرة) يخاطب الليل :

أفضى اليك بسرى أفضى اليك بروحى
فى العين دمع عصىّ وراء جفن قريح
وفى الضلوع أبى يهفو لكل مليح
أواه مما أعانى بين الهوى والطموح

فتأمل البيت الأول كيف عبر عن الافضاء بالسر ، الى أنه إفضاء بالروح وهو معنى لطيف ودقيق أيضاً — اذ لا يخفى ما لسر المرء فى نفسه من قداسة ورهبة .

وفى البيت الثانى كيف عبر عن إبائه وشممه مع شدة تأففه وتألمه ، بالدمع العصى فى الجفن القريح — وهو كناية عن دوام الألم واستمراره — وفى انهمار الدموع راحة للانسان .

الى أن قال :

الأرض لم يبق فيها من موطن للصريح
من لم يغنّ بموسى غنى لعيسى المسيح
يا روح من أين جئت من حيثما جئت روحى
سر الحياة أليم بوحى به واستريحى

فتأمل البيتين الأخيرين وقوله (سر الحياة أليم) فان هذا معنى سام ، وقلما يتأتى التعبير للانسان عن كل ما فى الدنيا فى كلمات ثلاث (سر الحياة أليم) ثم قوله :

صداحة الروض ما أشجاك أشجانا نوحى بشكواك أو نوحى بشكوانا
ذاب الفؤاد أسى إلا بقيته الآن أذرفها من عينى الآنا
للحب عندى سر لا أبوح به الا دموعا وأنات وألحانا
فى ذمة الله قلب لم يجد سكنا يأوى الى ظله فارتد حيرانا

من الكلام ما اذا قرأته أرغمتك حلاوته وأشجتك عذوبته فاستعدته أخرى وأخريات

ونفس الانسان لاتطلب الاستزادة الا مما تحب ، وأنا أجزم أنك حين تقرأ تلك الأبيات لابد أن تعيدها المرة بل المرات .. ولكن انظر معى قوله :

ذاب الفؤاد أسى الا بقيتـه الآن أذرفهـا من عينى الآنا

وتدبر شطرى البيت مستقلين ثم تدبره كله جملة واحدة .. أليس كله موسيقى .. موسيقى من أى نوع ؟ من النوع الذى يأخذك سحرها من غير ما حاجة الى توقيع أو تلحين ، ثم انظره بعد ذلك يظهرك على الارتباك والحيرة وما فيهما من ألم ، فيقول: فى ذمة الله قلب . . الخ

ثم انظر قوله وتدبر مافيه من عذوبة وسحر :

ياليل هـل ترثى لواجـد ياليل أنت عليـه شاهد ؟
وجـد أقض مضاجعى هيهات ينجو منـه واجـد

الى أن قال :

بئس التقاليـد التى تزع القلوب عن المقاصد
هل ذل من أنف الشكيم سوى الشكائم والمقاود

الى أن قال :

فكوا عن الحر القيود وحسبه الزمن المعاند
أصبحت من خوف القيو د أخاف وسوسة القلائد
ياقلب حسبى إن أمت فى الحب أنك أنت خالد
فى الخلد من ربح الفتوح ومن قضى عذر المجاهد
يهنيك أن رمت الجمال فشمت مالم يلق رائد(١)

ثم انظر قوله يصف مجلسا وبراعته فى الوصف وإجادته فى التعبير حيث يقول :

انتظم الصفو بهم معشرا من خير مازدان به معشر
فى مجلس يجرى به صفوه كما جرى فى الجنة الكوثر
يتابع الضحك به بعضه كالموج ذى تطوى وذى تنشر
فنكتة فى ضحكة تختفى وضحكة فى نكتة تظهر
يرسلها صاحبها لفظة كأنها من فمه السكر
يامن رأى فى قصفنا وصفه فظننا كنا به نسكر (٢)

وهذا كما ترى ضرب من الشعر الرقيق وابتكار ما أخلقه فيه بالاجادة والتوفيق ، ولئن عجز قلمى عن توفية صديقى حقه .. فأحرى به أن يعرف مافى قلبى له ... وحسبى هذا ؟ محمد السيد

(١) القصيدة بأجمعها نشرت فى العدد الأول من « المعرفة » تحت عنوان « ياقلب ! »
(٢) « « « « السابع « « « « « مجمع الأصفياء »